التخلف الحميد

إبراهيم الليفي
كاتب كويتي

لا يمكن عقد اتفاق « هدنة « مع التطور التكنولوجي ، تلك النتيجة الحتمية لا تؤرقني ، فكل ما هو لصالح لتسهيل حياة البشر أمر محمود لا سبيل للاعتراض عليه ما عدا بعض الاستثناءات المتعلقة بفقدان الآلاف من العمال لوظائفهم بسبب آلة لا تعرف النوم أو المرض أو العطل الرسمية .

لا زلت أذكر تلك الحالة من الشغف باستعمال أجهزة الحاسب الآلي عندما تم تخصيص فصل دراسي في ثانوية كيفان للمقررات قبل ثلاثة عقود لتعليم استخدام تلك الأجهزة خلال (الفرصة) بين الحصص ، ربما كان ذلك الشغف نتيجة طبيعية لاهتمامي بأفلام الخيال العلمي وكل ما يخص علوم المستقبل وكيف سيكون عليه شكل العالم بعد مرور فترة من الزمن .

منذ ذلك الحين وأنا أساير التطور التكنولوجي ولا أجد فيه شرا يتهدد جوهر حياة الإنسان وتكوينه الثقافي والمعرفي ، بل أني وجدت في ثورة الاتصالات عتقا من الدوائر الضيقة التي نعيش فيها في أكثر من مجال ، خاصة بعد انخراطي في العمل الصحافي منذ عام ١٩٨٩م من خلال صحيفة الجامعة الرسمية وما تلاها من محطات في حياتي مع الصحافة .

لقد كان العمل الصحافي آنذاك وحتى وقت قريب يعتبر « متخلفا « في أدواته لأننا كنا نستعمل القلم والورق للكتابة حرفا حرفا وكلمة كلمة والطفرة البسيطة حصلت عندما استعملنا المسجلات الرقمية التي تحفظ لنا أصوات من نقابلهم ونغطي أخبارهم لعدة ساعات بدلا من مسجلات الأجل القصير ، ثم حدثت القفزة التالية بصدور نسخ رقمية على شبكة الإنترنت للصحف ليقرأها العالم بأسره ثم اجبر الصحافيون التقليديون على كتابة إخبارهم على الكمبيوتر أو مواجهة مصير الاستغناء عن خدماتهم على وقع اختصار دورة العمل وضرورة صدور الصحف بوقت مبكر .

كل ما حصل من تسارع بعد ذلك في مجال الصحافة والاتصالات وظهور الهواتف الذكية أمر يعيشه الناس الآن ومن يعملون في مجال الصحافة الورقية يعرفون أن المستقبل لن تكون فيه مساحة الورق مثلما هي عليه اليوم وربما يكون مصيرها مثل الفحم الحجري الذي كان فيما مضى ملأ السمع والبصر والأنف ، هو موجود بالفعل ولكن بشكل محدود جدا ، القضية التي تشغلي منذ مدة طويلة هي مخاطر الجنوح في الاعتماد الكلي على التكنولوجيا خاصة في مجالي حفظ البيانات والحفاظ على الحد الأدنى من المهارات ، كانت ولا زالت بعض المؤشرات تنبهنا لبعض تلك المخاطر ولكن حلاوة التطور وضجيجها الإعلاني غالبا ما طمس معالم الأصوات التي تحذر من مستقبل قد يجد الإنسان فيه نفسه مجهولا من أي ورقة

ثبوتية وفاقدا لأي صورة تذكارية تربطه بماضيه أو إنسان عاجز عن مواصلة الحياة لفقدانه أي مهارة يدوية تعينه على المطب الذي وقع فيه .

هل تلاحظون معي أن مهارة الكتابة تسير نحو الاندثار في حين تطورت مهارة (النقر) على لوحة مفاتيح الكمبيوتر و (لمس) الألواح الرقمية ؟ ، ألم يعش البعض منا حالة الضياع الكامل حتى وهو داخل الوطن عندما تنفذ بطارية هاتفه الذكي أو يفقد جميع أرقامه المخزنة ؟ أليس الجنون هو الوصف الذي ينطبق على من تسرق منه أرقامه السرية والبنكية وكل خصوصياته المخزنة في جهاز سلمناه رقابنا وأسرارنا ؟ .

إن من بين أفلام الخيال العلمي التي شدتني إلى المستقبل أفلام من نفس النوع حذرت من مخاطر تسليم كل شيء إلى الآلات ، وأنا هنا لا أتحدث عن الأفلام التي تتحدث عن مخاطر الذكاء الاصطناعي مثل (تيرمينيتر ، ماتركس ، آي روبوت .. ألخ) ولكني أتحدث أعمال كان الكمبيوتر فيها هو البطل الرئيسي الذي تم من خلاله ممارسة أعمال القرصنة على مؤسسات مالية وأمنية وطبية وبيانات شخصية وخلق هويات ومعلومات ملفقة يصعب تمييزها للوهلة الأولى .

سأقفز إلى محطة أخيرة لا أعتبرها سرا ولكني لا أتحدث عنها سوى في المناسبات وهذه مناسبة لا يمكن تفويتها ، أنا من الذين يفاخرون بتخلفهم القرائي لأني ما زلت من أنصار الكتاب الورقي ، لقد سايرت التطور التكنولوجي لأقصى حد ولكن عندما تعلق الأمر بالكتاب رفضت حشره في حاضنة الكترونية ديدنها الخيانة والتقلب والاسترزاق ، نعم هي وسيلة مثالية للانتشار والوصول لأمهات الكتب البعيدة أو الممنوعة ولكني في النهاية سأكبس زر الطباعة وأعيد تجميع المطبوع بين دفتي حاضنة تقليدية وأنا أردد « أهلا بالورق ومرحبا بالتخلف «